العصر الحجري في الألف التاسع والثامن في شمال سورية، نتائج التنقيبات في تل حالولة (وادي الفرات، سورية)

ميغيل موليست

تعريب: بسام جاموس وعادلة طالبي

مقدمة:

إن منطقة شمال سورية وبالتحديد حوض الفرات الأوسط، هي واحدة من أهم المناطق في الشرق الأوسط التي تنبئ عن تطور معرفة التحولات الإجتماعية والإقتصادية الذي تمثله مرحلة الإنتقال من حياة القرى (الصيد والجني) إلى مرحلة تطوير الإقتصاد المعتمد على الزراعة والتدجين.

في السبعينات والثمانينات، قدمت مواقع المريبط (كوڤان، ١٩٧٦) والشيخ حسن (كوڤان، ١٩٧٨) وأبو هريرة (مور، ١٩٧٥) مستندات سمحت بتحديد التطورات الإجتماعية الثقافية لهذه التحولات وتفسير الشروحات المتعلقة بها (كوڤان، ١٩٧٨-١٩٨٩؛ مور، ١٩٨٥؛ جاك وماري كلير كوڤان، ١٩٩٣).

لقد اقتُرحت الحفريات الجديدة المنفذة في منطقة مشروع بناء سد تشرين والجارية ضمن إطار عمليات إنقاذ، بتوجيه من المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية، مما سيسمح بإغناء معلوماتنا عن هذه التحولات وإعادة النظر فيها. وتندرج ضمن هذه الحفريات أعمال البعثة الأثرية الإسبانية (وزارة الثقافة، جامعة آتونوما في برشلونة - إسبانيا) العاملة في موقع حالولة الواقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات، قرب مدينة جرابلس الحالية. وقد بدأت البعثة أعمالها منذ عام ١٩٩١ ضمن ظروف مناسبة وذلك بفضل دعم المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية. ونحن نشكر بشكل خاص الأستاذ الدكتور سلطان محيسن المدير العام للآثار والمتاحف، والدكتور عدنان البني مدير التنقيب والدراسات، والدكتور محمد وحيد خياطة مدير آثار حلب، والسيد محمد حاج علي ممثل المديرية لدى البعثة. كما نذكر بأن نجاح البعثة مرده اندراجها ضمن مشاريع نشاطات وزارة الثقافة الإسبانية - المديرية العامة للفنون الجميلة والأرشيف، بالإضافة إلى مساهمة وزارة التعليم والبحث (DGICYT. Projet NH 93-0903)[١] في دعم وإنجاز المشروع.

موجز عن جوانب المسألة المتعلقة بالفترة الواقعة بين الألف التاسع والألف الثامن في منطقة الفرات الأوسط:

نلاحظ حسب معلوماتنا الحالية من الوثائق، أن منطقة الفرات الأوسط واحدة من المناطق النادرة في الشرق الأوسط التي استمر السكن فيها بين الألف العاشر والألف الثامن، حيث نستطيع أن نلحظ التحولات المتتالية في مجال العمارة والحرف والتموين، الخ. مما يسمح لنا بدراسة تفصيلية

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

لتطور التحولات من مرحلة الإقتناص (الجني والصيد) إلى مرحلة الإنتاج (الزراعة والتدجين).

رغم أن الدورة الكاملة لهذه التحولات بدأت منذ الألف العاشر، سنقوم بتقديم محصلة المعلومات الحالية قبل المستندات الجديدة التي تشمل الفترة الممتدة بين الألف التاسع والثامن. من الضروري أن نذكر بأنه منذ البداية كانت سمات تل حالولة تشكل استمرارية واضحة مع المراحل السابقة في بقية مواقع المنطقة نفسها (انظر مقالات كوڤان، ستوردور، كوكينيو في هذا العدد).

تشير الدلائل المكتشفة بأن العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب الوسيط (٩٢٠٠-٨٥٠٠) يتجلى بالدرجة الأولى في العمارة. وهكذا يدل موقع (أبو هريرة) خلال إستيطانه الثاني بعدما هُجر في العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار أ، على توطيد القرى الزراعية كل مرة مع اتساع أكبر يقدر بـ (٨هكتار)، وفي مجال العمارة فقد ظهرت تقنيات وأفكار جديدة لأبنية من الأجر متعددة الغرف، أرضيتها مطلية بالكلس وأحياناً ملونة. كما أصبحت المواقد، الأفران والحفر لحفظ الحبوب داخل المنازل.

في مجال الإقتصاد، ورغم أنه في المرحلة القديمة يُعتقد وجود زراعة ما قبل التدجين، يبدو أنه ابتداءً من سوية (أبو هريرة ٢)، وُجدت زراعة الحبوب والبقوليات، كما نستطيع أن نلاحظ الدلائل الأولى لتدجين الضأنيات والغنميات (ليجي ورده هيلمر، ١٩٩٢). وتستمر تقنية النحت النصالي التي ظهرت منذ مرحلة المريبطي الحديث في إنجاز أدوات حجرية منها أسلحة عديدة أغلبها من نمط جبيل. كما سمحت هذه التقنية بتطوير صناعة واستعمال الفؤوس المصقولة. من جهة أخرى، إزداد استعمال مادة الأوبسيديان، كما تعددت المناطق من حيث كان يُؤتى بها، إذ بالإضافة إلى منطقة كبادوكيا كما في المراحل السابقة، أُتي بها من الأناضول الشرقية (ماري كليركوڤان، ١٩٩١).

في المجال الرمزي والفني نشير إلى وجود طقوس خاصة بثقافة العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب، مع جمع مجموعة جماجم في مستودع أو وضعها على أرضيات المنازل، ولقد عُرفت هذه العادات في (المريبط وأبو هريرة).

في المرحلة الحديثة للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب (٨٥٠٠-٨٠٠٠) لاحظنا استمرارية الإقامة في أبو هريرة بتوسيع مساحة السكن في نفس الوقت، مع ظهور مواقع جديدة، سواء نحو نهر الفرات الأدنى مثل بقرص (أكرمانس وآخرون، ١٩٨٣؛ رودنبورغ، ١٩٨٦)، أو في المناطق المرتفعة نحو الأناضول مثل كرتيل (ڤوا، ١٩٨٦) أوهياز (رودنبورغ، ١٩٨٩).

تشير وثائق بقرص إلى تعقيد المنازل ذوات ٥ غرف أو أكثر ونظام معقد ومرتب للمساحة المسكونة. بينما في المجالات الأخرى استمر التشابه مع العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب الوسيط. في مجال الحرف نلاحظ في نهاية هذه المرحلة منذ حوالي ٨٠٠٠ بروز فنون النار مع ظهور الفخار، إما في منطقة الفرات كموقع بقرص، وإما في قرى حوض البليخ مثل تل أسود، أو الدامشلية (لومبير، ١٩٨٦).

في المجال الإقتصادي، نلاحظ في هذه القرى توطيد تقنيات الزراعة بشكل كبير مع زراعة أنواع جديدة من الحبوب كالقمح القاسي *Triticum Aestivum/Durum* الذي لم يُوجد سابقاً إلاّ في واحة دمشق، بينما نجده حالياً حتى في مناطق السهوب كبقرص. ولقد خص هذا الإنتشار حتى زراعة البقوليات، كما أنه خلال هذه المرحلة بدأ استغلال الكتان في تل الرماد في وسط المشرق. غير أن توطيد الممارسات الإقتصادية الجديدة لوحظت خاصةً في استغلال الحيوانات، بحيث أُكد تدجين الضأنيات والغنميات، بينما تعود آثار تدجين الثور قبل ٨٠٠٠ في المواقع الموجودة في منطقة نهرية مثل بقرص وهياز أو في رأس الشمرة على الساحل (هيلمر، ١٩٩٢).

ابتداءً من الألف الثامن. تصبح وثائق منطقة الفرات الأوسط نادرة ويصعب تركيبها. ورغم استمرار الإقامة في تل بقرص وأبو هريرة وكرِ تيل خلال القرون الأولى، فإن الوثائق المدونة لاتسمح بوضع جدول أكبر، وهذا ما قاد الباحثين هورس وكوبلاند (١٩٨٣) إلى اعتقاد نهاية دور منطقة نهر الفرات في تلك المرحلة، لدرجة أنهم تحدثوا عن العزوف عن هذه المنطقة بإتجاه الغرب أو الشرق، حيث نلاحظ إقامة سكانية أكثف، وحيث يسمح لنا وجود الفخار بتعريف مجموعات ثقافية مثل « المنطقة السورية-

السيليسية » على طول ساحل البحر المتوسط، أو منطقة الخابور وروافد الفرات الشرقية.

وثائق تل حالولة الجديدة:

تدل الأعمال التي تمت حتى الآن في هذا الموقع على احتمال وجود إقامة مستمرة منذ العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب الوسيط، حتى ثقافات النصف الأول للألف الثامن. (أي الفترة التي، حسب التأريخ غير المضبوط، تغطي المرحلة ما بين ٨٧٠٠ و٧٤٠٠). كما أنه تم التعرف على إقامة تعود إلى مرحلة حلف الوسيط في أجزاء أخرى من التل.

مرحلة استيطان العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب الوسيط:

إلى يومنا هذا، تم تنقيب مساحة تقارب ١٠٠م٢، تعود إلى العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب الوسيط، الذي لم يُعثر على آثاره إلاّ في الجزء الجنوبي من التل (القطاع ٤)، ويأتي مباشرةً فوق الأرض البكر. وحسب التواريخ المطلقة التي تحصلنا عليها، ترجع هذه المرحلة إلى الجزء الأول للألف التاسع. (هناك تأريخان: الأول ٨٧٠٠ ± ٦٠ وهو الأصح، والثاني ٩٥٢٠ ± ١٨٠ ويُعتبر قديماً جداً).

إلى يومنا هذا، تم التعرف على ست سويات مع تسلسل أبنية، وإقامات وهجرات منازل مع المساحات الخارجية التابعة لها، لكنه من الصعب تحديد المساحة المسكونة بشكل دقيق، رغم أن العلامات تجعلنا نعتبرها بحوالي ٦/٧ هكتار.

العمارة وتميُّز المساحات:

لقد تم تنقيب بنائين كاملين، الأول أعيد بناؤه مرة واحدة فقط بينما أُعيد بناء وترتيب الثاني -على الأقل- أربع مرات. وتتميز عمارة هذه المرحلة بالمخطط المستطيل الشكل مع حجرتين أو ثلاث ذوات أحجام مختلفة. وتتمثل المواد المستعملة في بناء الجدران في الأجر الخام أو اللبن، وفي بعض الأحيان بالأحجار، كما طليت الأرضيات وواجهات المنزل الداخلية بالجص. كان يتم الإتصال بين الغرف عن طريق مداخل عالية نوعاً ما، ومطلية هي الأخرى بالجص. في الغرفة الكبيرة بُني فرن بتقنية متحضرة، وبالإضافة إلى هذه الأبنية، توجد مساحات خارجية بُلطت أرضيتها بالتراب المدكوك، وفيها طبقات من الفضلات وبعض الإنشاءات (كمواقد في حوض، الخ)، وهذا ما يدل على استعمال هذه المساحات للنشاطات المنزلية (التقطيع وتجهيز الطعام) أو لنحت الأحجار، كما وُجدت عدة حصر متفحمة.

ولقد قدمت إحدى الأبنية عناصر رمزية، إذ تم العثور فيها على خمس مقابر في الطبقة الحديثة، ومستودع لجماجم ثيران *Bos Primigenius* في قاعدة كل طبقة معادة البناء. كما تتميز هذه الأبنية بكون أحد جدرانها الخارجية دائري، على شكل محراب.

النشاطات التقنية:

في الصناعة الحجرية حيث الدراسة جارية[٢]، لوحظ استغلال نوعين من الصوان المجلوب من مناطق مختلفة: استُخدم خاصةً الصوان ذو الحبيبات الخشنة أو المتوسطة، أُتي به من منطقة وادي الفرات نفسها، إذ نقله النهر مع بقية الحصى؛ واستُعمل النوع الثاني، وهو من نوعية أفضل، في صناعة بعض الأدوات، وقد أُتي به من منطقة أبعد لم تُحدد بعد. كانت تقنية نحت الحجارة نصالية، ولقد استُعملت خاصةً لطرق نوى ثنائية القطب، من بينها النوى الزورقية الشكل التي تميز العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب.

ومن الأدوات التي استطعنا التعرف عليها، نذكر الأسلحة الدفاعية، منها بشكل أساسي نبال جبيل، وأيضاً النصال المشذبة، بعضها ملمعة، والمثاقب والأزاميل، الخ. كما وُجدت مادة الأوبسيديان، وأغلبها على شكل نصيلات. وتتمثل الأدوات المصقولة في بعض الفؤوس وكرات المقلاع. أما فيما يتعلق بالأدوات العظمية، فإلى جانب الأدوات العادية نذكر المصاقل والمخارز وإبرة محززة من نمط مريبط[٣].

إقتصاد المعيشة:

قدمت دراسة المستحاثات النباتية والحيوانية الجارية وثائق مهمة حول اقتصاد هذه القرية[٤]: فيما يتعلق بالإستغلال الحيواني، يتضح بأن الصيد كان النشاط الأساسي

لتأمين الغذاء اللحمي. ومن أهم الحيوانات المصطادة نذكر الثيران من نوع *Bos Primigenius* إلى جانب الغزلان والخنازير والحيليات من نوع *Equus Hemiouns* و*Equus Asinus*، والأيليات من نوع *Dama Mesopotamica*، إضافةً إلى السلاحف والعصافير. وإن الكلب أحد الحيوانات التي يمكن اعتبارها أليفة، إلا أنه لا توجد آثار لاستهلاكه. وتدل آثار لأنواع من الضأنيات والغنميات البرّية والمدجنة على ممارسة التدجين في نفس الوقت مع الصيد في قاعدة الموقع، بينما ترتفع نسبة الضأنيات تدريجياً من القاعدة، مع احتمال أنها كانت في السويات السفلى متوحشة وفي السويات العليا مدجنة. وتشير كل هذه المعطيات إلى استهلاك واسع للحيوانات الموجودة في هذه المنطقة.

أما فيما يتعلق بالإستغلال النباتي، تدل الدراسات النباتية الأولية على زراعة القمح في قاعدة الموقع، إذ وُجدت بعض أنواعه بشكلها المدجّن *Triticum aestivum/durum* *Triticum monococum, Triticum dicoccum*، لكن عُثر أيضاً على أنواع برية مثل *Triticum diciccoides* و *Hordeum spontaneum*، وسوف تمكننا دراساتها المتعمقة بتحديد فيما إذا كانت هذه الحبوب قد قُطفت أو زُرعت. كما أُكدت زراعة واستهلاك بعض البقوليات مثل العدس والبازلاء، واستثمار الأشجار المثمرة البرية كأشجار الزيتون والخوخ. وتشير تحاليل الفحم الأولى على وجود أنواع مختلفة من النباتات كالفستق *Pistacia*، وتدل هذه الأنواع على وجود مناخ أكثر رطوبة من الوقت الحاضر، وبالتالي وجود غطاء نباتي أكثر أهمية.

عادات الدفن:

رغم قلة المدافن (تم العثور على ستة مدافن) نلاحظ تنوعاً معتبراً في عاداته، إذ عُرف الدفن الثانوي للجماجم، مدافن فردية أولية أحياناً داخل منزل في حفر لها غطاء، وأخيراً مدافن ثانوية لأشخاص.

الإقامة في الموقع خلال العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب الحديث:

إن هذه المرحلة معروفة في مساحة كبيرة من الموقع (بلغت المساحة المنقبة أكثر من ١٥٠م٢)، وتم التعرف فيها على تسلسل معتبر لطبقات استراتيغرافية، مكونة من سويتين تتميز كلاهما بوجود أبنية وبإشغال وهجرة المنازل والفسحات الخارجية الملحقة بها. وإضافةً للتأريخات النسبية المذكورة سابقاً، تضع ستة تأريخات مطلقة هذه الإقامات في النصف الثاني من الألف التاسع.

ويبدو أنه خلال الإقامة في هذه المرحلة، عرفت القرية اتساعاً أكبر في هذا الموقع، إذ شملت حوالي ٨ هكتار. كانت المنازل منفصلة عن بعضها البعض بمساحات خارجية، بُنيت فيها مواقد وأفران مدفونة وورشات (حرفية)، الخ ... وتشير كل هذه الأبنية إلى وجود نشاطات منزلية وحرفية خارج المنازل.

ولقد تم الكشف عن سبع منشآت جزئية أو كاملة لها مميزات وخصائص متشابهة. وتتمثل في بيوت مبنية على قاعدة حجرية وجدرانها من الآجر، مطلية من الداخل بالجص الذي استُعمل كذلك لطلى سطوح أغلبية الغرف. شكل هذه المنازل مستطيل وهي متعددة الغرف: للمنازل المحفوظة أفضل ثلاث غرف، ويبدو أنها استُعملت لوظائف مختلفة، ففي الغرفة الأكبر ذات السطح المطلي بعناية كبيرة، عُثر على موقد وفرن. بينما الغرفتان الأخريان أصغر حجماً، ولها وظائف ثانوية، إذ وُجد في احداهما عدد من مخازن الحبوب وهذا ما يدل على انها استُعملت للخزن. تتكون أرضية الفسحات الخارجية من الطين المدروس، وعُثر فيها على مواد عضوية (مساحات فحمية، الخ.) إضافةً إلى أبنية للحرق. ونلفت الإنتباه إلى عدم وجود أية جمجمة ماعدا قرون ثور *Bos Primigenius* في أساسات هذه المنازل، لكن لا توجد أدلة على ممارسة اعتيادية.

أخيراً، عُثر في القطاع ١ على جدار كبير بُني من الأحجار الكبيرة وهو حالياً قيد التنقيب، يبلغ ارتفاعه المحفوظ أكثر من ٣م، وحسب التأريخات الحالية، يعود إلى نهاية النيولتي ما قبل الفخار ب.

النشاطات التقنية:

في مجال الصناعة الحجرية، تتميز هذه المرحلة عن السابقة بالإستمرارية الكبيرة في استغلال نفس أنواع الصوان، كما ازداد استعمال الأوبسيديان، وعُثر منه على

نوى ذات قاعدة واحدة للطرق. ويدل وجود تقنية الضغط في طرق الأوبسيديان على أن الصناعة كانت محلية، رغم أنه كان يُؤتى بهذه المادة من منطقة الأناضول الشرقية وكبادوكيا[٥]. من الناحية التقنية، يمثل الصوان النوع الأساسي للحجر المستخدم، ولقد استُعمل في صناعة الأدوات الصوانية النحت الثنائي القطب والنصالي.

ونلاحظ هذه الإستمرارية أيضاً في وجود النبال كنوع غالب، ثم تأتي بالدرجة الثانية النصال المشذبة والمكاشط والمثاقب، الخ.

ومن بين رؤوسْ السهام، عُثر خاصةً على نبال جبيل، لكن في السويات العليا وُجدت كذلك نبال العمق. أما فيما يخص النصال المشذبة، عُثر على نوع جديد متميز ويتمثل في النصال المطروقة الملمعة ذات ضهر محدب (الأسود، كوفان، ١٩٧٢)، وهي تميز العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب الحديث في منطقة الفرات. ومن المميزات الأخرى، نذكر وفرة وتنوع الأدوات الحجرية المصقولة كالفؤوس والأواني وكرات المقلاع. كما عُثر على عدد معتبر من الحلي بأشكال خاصة بهذه المنطقة، ونذكر منها اللآلئ من الحجر الأخضر أو من الأوبسيديان. ولقد استُعمل أيضاً الطين في صناعة بعض الأدوات، ككرات المقلاع، وبخاصة التماثيل الحيوانية المبسطة. أما بالنسبة للصناعة العظمية فوُجدت بكثرة، منها خطّاف.

إقتصاد المعيشة:

فيما يتعلق باستغلال الحيوان، تختلف دينامية هذه المرحلة عن المرحلة السابقة، إذ تبين دراسات علم الحيوان الأهمية الكبرى لفصيلتي الضأنيات والغنميات المدجنة، وبخاصة الخروف رغم الإستمرار في استهلاك الغزال. يتواصل أيضاً استغلال الثور، ولقد لاحظنا انخفاضاً في قامته، وهذا ما يثبت تدجينه. أما فصيلة الخنازير فآثارها ضئيلة جداً، لذلك يصعب اثبات تدجينها. ولقد رافق التزايد في استغلال الأنواع الحيوانية المدجنة تناقص في الأنواع المصطادة، وبخاصة تلك التي كانت تشكل الغذاء الأساسي في المرحلة السابقة، كالغزلان والأبقار البرية والأيليات والخيليات والخنازير، رغم أن نسبتها كانت قليلة. أخيراً - ولو بشكل قليل -، نلاحظ استمراراً في استغلال الأنواع الحيوانية الصغيرة كالطيور والسلاحف.

وتبين تحاليل العينات النباتية التي لا تزال قيد الدراسة استمرارية بدءاً من أفق العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب الوسيط.

عادات الدفن:

عُثر في هذه المرحلة على خمسة مدافن فردية، أربعة منها أولية وواحد ثانوي. ولقد لوحظ وجود نسبة عالية (أكثر من ٧٠٪) من الأطفال، لا تساعد على تحديد الجنس، ونسبة قليلة من الشبان / البالغين. وبصفة عامة، تنتمي هذه البقايا لأشخاص من ذوي البنية الضعيفة، وإن المرض المنتشر كان نقص تنسج الأسنان الذي يسببه عادةً الإضطراب في التغذية[٦].

الإستيطان في النصف الأول من الألف الثامن:

المرحلة التالية المؤكدة في تل حالولة تعود إلى النصف الأول من الألف الثامن، وهي استمرار للمراحل السابقة كرونولوجياً، إلاّ أنها وُجدت استراتيغرافياً في قطاعات أخرى من التل. ولقد أُعطي لهذه المرحلة تسميات كثيرة، فبالمعنى الواسع إنها تطابق ثقافة "ما قبل حلف" التي لها علاقة بثقافات الساحل السوري كالعمق A-B ورأس شمرة VB-A (بريدوود، ١٩٦٠؛ دوكونتنسون، ١٩٦٣)، أو ثقافات منطقة وادي البليخ شرقاً (أكرمانس، ١٩٩٢). وبما أن دراستنا حول هذه السوية لا تزال جارية، فإننا نفضل أن نبقى الآن في الإطار الكرونولوجي، إلى أن نحدد بدقة صلاتها الثقافية.

معطياتنا من ثلاثة قطاعات:

لقد ساعدت الظروف الطبيعية، في القسم الجنوبي الشرقي من التل على الإقامة فيه، إذ أنه يقع عند ملتقى الواديين اللذين كانا يحيطان بالتل، حيث كانت الرؤية باتجاه الفرات واضحة. وفي عام ١٩٩٢، قمنا بحفر جزء من هذه الجهة (القطاع SS-7) على مساحة ٢٢٨م٢، فاكتشفنا - على الأقل - تسع سويات متتالية، متميزة بتحضير وبناء وهجر مجموعة منشآت سكنية، والتي حسب أربعة تأريخات

مطلقة - ترجع إلى النصف الأول من الألف الثامن ق. ح. (٧٨٨٠ ± ٧٤٤٠).

في مختلف المربعات والسويات تم العثور على منشآت كبيرة، بُنيت من الطوب. في السويات المحفوظة أفضل، يصل ارتفاع هذه الأبنية حتى ١,١٠م، وتبين الأجزاء التي ظهرت حتى الآن جدراناً كبيرة، عرضها ١,٢٠م، وتختلف أحجامها وآثارها والمواد التي بُنيت بها وكيفية ترتيبها عن الأبنية المنزلية. وحسب الوثائق الحالية، ترجع هذه البقايا إلى سور كبير يحد بمساحات ذات أرضية مدروسة، لم توجد فيها آثار لمنشآت، لذا من المحتمل أنها كانت فسحات للإقامة في الهواء الطلق. ومن بين الأبنية المرتبطة بالسور، عُثر على باب أو ممر، وخاصةً مجاري مائية في مختلف السويات، يصل طولها في السوية المحفوظة أفضل ١٦م. وإن هذه المجاري عبارة عن حفر، حُفرت وعولجت بعناية، كما تدل على ذلك جدرانها المطلية بالصلصال وأحياناً بالأجر الخام، وتعلو قاعدتها المنحدرة قليلاً والمغطاة باللبن طبقة من الحصى. وكانت كل المجموعة مغطاة ببلاطات كبيرة مسطحة ومتداخلة. وحسب استنتاجاتنا الحالية، بُنيت هذه كقنوات لنقل المياه في الإتجاه غرب - شرق التل، ووُضعت في الجزء الشمالي منه حيث الانحدارات ملساء أكثر.

في القطاع SS14 المفتوح على مساحة ١٥٠م٢، تم العثور على وثائق أخرى، وتتمثل في ثلاث سويات معمارية كبيرة. ورغم أننا لم نحصل على تأريخات مطلقة، تحدد التأريخات النسبية هذه الإقامة في مرحلة أحدث من مرحلة القطاع SS7.

وفي هذا القطاع، كشفت البقايا المعمارية عن وجود ستة مساكن منزلية ذات مخطط مستطيل ومتعددة الغرف، بُنيت على قاعدة حجرية، لكن جدرانها التي يُحتمل أنها بُنيت من الأجر الخام، وُجدت متآكلة جداً. وكانت أرضية الفسحات الخارجية من التربة المدروسة، وعُثر فيها على منشآت الحرق على شكل أحواض.

أخيراً، في الجهة العليا من التل حيث فُتح القطاع ١، وفي السويات الثلاث لمرحلة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب، تم التعرف على إقامات جديدة التي - حسب البقايا و التأريخات المطلقة - تعود إلى الربع الأول من الألف الثامن. ولقد كانت هذه الإقامة الجديدة المرتبطة بالجدار الكبير باتجاه الشرق من حيث الأرضيات الخارجية التي تقابل الواجهة الخارجية للجدار، بينما كانت باتجاه الغرب من حيث الإنشآت التي تعلوا مباشرةً سويات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار. وفي هذه الجهة (أي الإتجاه الغربي)، تمكنا من التعرف على سويتين أساسيتين مع مساحات خارجية وحفر وبقايا لأبنية، من بينها النمط المعروف بإسم *Tholos*، وهو متكون من غرفتين مستديرتين/بيضويتي الشكل، قطرها الداخلي ٢,٢٠م و١,٣٠م، وهي متصلة بممر. في الطبقة الحديثة لهذا المبنى، عُثر على أرضية وواجهة داخلية مطلية بالجص، كما عُثر على مقعد صغير مرتفع قليلاً ومستطيل الشكل مستند إلى الجدار S.E. عرض المدخل الموجود في الناحية الغربية ٥٥ سم. وكانت الجدارن الداخلية مدعمة بعناصر دائرية. أما المرحلة الأقدم التي أعطت أيضاً أرضية وواجهة داخلية لجدران مغطاة بالجص، فقد كان جدار الغرفة ذات القطر الصغير مستنداً على جدران الغرفة الأساسية. رغم أن حجم البناء الذي كُشف عنه صغير نوعاً ما بالنسبة لأغلبية أبنية *Tholos*، فإن وظيفته كمنزل سكني واضحة.

إن الوثائق المستخرجة من الجهات الثلاث المنقبة وسبر عام ١٩٩٢، تشير إلى إقامة واسعة في التل خلال هذا الأفق الكرونولوجي. وتتميز هذه الإقامة بوجود جدار كبير، بُني كحاجز لمساحة سكنية ذات منشأة مبعثرة ومتعددة الغرف، تفصل بينها مساحات واسعة.

النشاطات التقنية:

حدث تغيير بالنسبة لاستغلال الأدوات الحجرية، إذ انخفض استعمال الصوان ذي الحبيبات الناعمة، بينما ازداد استعمال الصوان الخشن، ذي الحبيبات المتوسطة. كما حدث تغيير في تقنية صناعته، إذ رغم الإستمرار في تقنية النحت النصالي، انتشرت تقنيات أخرى أكثر تنوعاً بشكل أكبر. كما استمر استعمال الأوبسيديان بشكل كبير، وبينت تحاليل النوى من هذه المادة بأن صناعة الأدوات التي استُخرجت منها كانت محلية، وكانت تتم بتقنية الضغط. وتتمثل الأدوات العادية خاصةً في الأسلحة أو نبال العمق

التي أصبح لها دور أساسي، بينما فقدت الأنواع الأخرى، كالنصال المشذبة والمثاقب والكاشط، جمالها والمميزات التي عُرفت بها في المراحل السابقة. فيما يتعلق بالأدوات المصقولة، وُجدت بكثرة وتتمثل خاصةً في الفؤوس والمناقش والأواني الحجرية والهاون.

لكن الجديد في تقنية هذه المرحلة يتمثل في وجود الفخار. ورغم التنوع حسب السويات والقطاعات يمكننا جمع المجموعات المكتشفة بفضل الملاحظات التالية:

- بصفة عامة، النمط الممثل أكثر هو الفخار الخشن ذات مثبت نباتي والمعروف بـ (الإناء الخشن البسيط *coarse simple ware*). وضمن هذه المجموعة، تم التعرف على عناصر ملمعة (الآنية الخشنة البسيطة الملمعة *burnished coarse simple ware*) أو الآنية ذات الزخرفة المحززة (الآنية الخشنة المضغوطة والمحززة *coarse impressed and incised ware*)، أومجموعة أواني خشنة ومدهونة بالأحمر (الآنية الخشنة المدهونة بالأحمر *red-slipped coarse ware*).
- تتميز مجموعة الأواني الناعمة بالمثبت المعدني المتكون من حبيبات مصقولة، بعضها سوداء اللون، مع وجود كبير للكوارتز، وتسمى هذه المجموعة بـ(آنية داكنة الواجهة والملمعة *Dark Faced Burnished Ware*)، والبعض الآخر ملون بالأحمر (الآنية الملونة الحمراء *red painted ware*).

إن الدراسات الجارية[٧] لفخار مختلف السويات لاتسمح لنا بتقديم أية مقاربة دقيقة. لكن بشكل عام، نلاحظ تشابهاً مع المجموعات المعروفة في سويتي العمق أ والعمق ب بالساحل السوري (بريدوود، ١٩٦٠). ولأول مرة، نلاحظ في الموقع وجود أوعية بيضاء إلا أنها قليلة العدد. بينما عُثر على عدد كبير من أدوات متنوعة، منها الأختام الحجرية أو الخزفية، وأطواق من الخرز الحجري أو الخزفي، الخ.

إقتصاد المعيشة:

لاتزال دراسة العينات النباتية جارية، لكن تشير العلامات الأولية إلى استمرارية كبيرة لممارسات وأنواع المرحلة السابقة. فيما يتعلق باستغلال الحيوانات، تبين لنا تثبيت في التدجين المتعلق بدرجة أولى بالضأنيات والغنميات، مع وجود متوازن للماعز والخرفان. بينما تأتي فصيلة البقريات في الدرجة الثالثة من ناحية الأهمية، ولوحظت كذلك استمرارية صيد الأرخص. أما بقايا الخنازير، فعددها قليل جداً، لذا يصعب التعرف على العناصر المدجنة. كما استمرت نشاطات الصيد، إلاَّ أنها انخفضت بشكل ملحوظ. ولقد ركز الصيد على الأرخص والأيليات والخيليات والسلاحف.

أخيراً، قدم تل حالولة مرحلة إقامة أخيرة لم تُحلل في هذا التقرير وهي تعود إلى أفق ثقافة حلف. وتتمثل في بقايا لأبنية في حفر على الأرضية العليا للقطاع ١. وتعتبر نفس هذه الأنواع من البقايا (السطوح الخارجية والحفر) أدلة أساسية لإقامات أحدث، والتي تأتي بعد ثقافة حلف ستراتغرافياً، وهي آخر إقامة للمرحلة الإنتقالية حلف الحديث/عبيد. وفي هذا الأفق، تمكنا من تنقيب منشأة مستطيلة قائمة على قاعدة حجرية.

مناقشة:

مع أن النتائج لا تزال جزئية، تبين الأعمال التي جرت حتى الآن في تل حالولة أهمية هذا الموقع في دراسة كيفية تطور التغيرات الإجتماعية والإقتصادية للعصر الحجري الحديث (الظاهرة النيوليتية). ولقد زودتنا المعطيات بمعلومات حول المراحل الأخيرة للعصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب، والمراحل الإنتقالية إلى ثقافات (غير معروفة جيداً في هذه المنطقة) تعود إلى الألف الثامن.

يشكل تل حالولة قرية مهمة خلال المرحلتين الوسطى والحديثة للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب، إذ يضفي عليه اتساعه ومنشآته دوراً إقليمياً معتبراً. إن وجود بيوت مستطيلة على القاعدة، متعددة الغرف ومزودة بالمواقد والأفران وحفر لخزن الحبوب، يشير إلى المستوى العالي في التقنية المعمارية المتقنة آنذاك. ومن جهة أخرى، إن المنزل المُشار إليه في قطاع العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب الوسيط، حيث وُجدت رموز كثيرة، تذكرنا بوثائق جبيل (دونون، ١٩٧٣)، أو بدرجة أقل وثائق تشايونو (أوزدوجان وأوزدوجان، ١٩٨٩) التي كانت لها وظيفة

"جنائزية"، وبخاصة دينية، إذ ربما كانت "معابد" (كوفان، ١٩٩٤). وفيما يتعلق بالجدار الكبير الذي عُثر عليه في القطاع ١، ورغم أن تنقيبه لا يزال جارياً ولم تُحدد وظيفته كاملاً، فإنه يدل على وجود أشغال كبيرة، ربما جماعية.

وتدل معطيات النشاطات التقنية على الاستمرارية القوية مع الآفاق الثقافية السابقة، وستؤدي دراساتها النهائية، دون شك، إلى تحديد أفضل مميزات العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب في الفرات. كما سيزودنا تل حالولة بمعلومات جديدة في المجال الإقتصادي. إذ من جهة، وهذا هو الأهم، تمكنا من خلال التتابع الستراتيغرافي معرفة عملية تدجين أنواع حيوانية، التي أصبحت فيما بعد ذات أهمية اقتصادية كبيرة. وسيسمح هذا بإكمال المعطيات الجزئية من موقعي (أبو هريرة ورأس الشمرة)، ومتابعة عملية تثبيت الممارسات الزراعية. وإن معرفة كيفية استغلال البيئة بكل ما تقدمه من مواد وعناصر، ستسمح لنا بفهم علاقة المجموعات البشرية بوسطها الطبيعي، الذي حسب نظرتنا الأولية لا يبدو أنه كان مستغَل بكثافة، بل كان مداراً حسب النشاطات الإنتاجية الجديدة.

فيما يتعلق بالمراحل التي امتدت بين ٨٠٠٠ و ٧٥٠٠، فأول ظاهرة يمكن ذكرها هي استمرارية الإستيطان في الموقع، مع اتساع وأهمية مماثلة للمراحل الأسبق. إضافةً إلى ذلك، تدل الأبنية التي نحن بصدد إخراجها ودراستها، وقنوات المياه، على نظام قروي متحضر. ويعتبر هذا النمط المعماري وتنظيم المساحات هو الأقدم المعروف حالياً في سورية، ويمكن مقارنتها مع وثائق مناطق أبعد كموقع مغزلية في العراق الذي عُثر فيه على جدار (بدر، في الثمانينات)، وأيضاً موقع كيروكيتيا (لوبرين، ١٩٩٤)، رغم أنها أحدث.

يدل إذن تل حالولة على استمرارية سكنية خلال النصف الأول للألف الثامن، وتؤكد هذا دلائل المسوحات الأثرية الحديثة مع تمركز على سطح مواقع تعود إلى نفس هذه المرحلة: موقع ملا أسعد، والحمام الصغير والحمام الكبير (كوبلند، ١٩٨٥)؛ كما تم التعرف على هذه المرحلة من خلال الإستيطان الثاني في موقع جعدة المغارة (كوكينيو، قيد الطباعة)، وأخيراً عُثر عليها أيضاً في قاعدة موقع قوزاق شمالي (لومبير، معلومة شفوية).

وعلى عكس جنوب المشرق (بيرو، ١٩٩٣؛ رولفسون وكوهلر-رولفسون، ١٩٩٣)، تدل معطيات نشاطات حالولة الإقتصادية والتقنية على استمرارية الأعمال الجديدة المتقنة طوال فترة ألفي عام، بدون انقطاع ولا هجرة، إذ كانت الإقامة دائمة، وكان الإنتاج الإقتصادي في هذا الموقع متقن. وإن حالة البحوث الحالية لا تسمح بربط حالولة بمجموعات ثقافية أخرى معروفة (مثلاً العصر الحجري الحديث السوري-السيليسي)، ولا باثبات وجود ثقافة خاصة بحالولة. لكن يضع هذا الموقع احتمالات جيدة لتحديد استمرارية التطور الثقافي والإجتماعي والإقتصادي لمجموعات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب في منطقة وادي الفرات.